

سليمان الحكيم (ع) النبي الذي سخّر له جنود من الجن والطيور.. والريح



قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَبَاؤَ الْعَالَمِينَ إِنَّهُ مِنْ آيَاتِنَا) (ص/ 30).

سليمان (ع) - كما في الآية - هو هبة الله لداود (ع)، ولو صحّت الروايات التي تذكر وجود إخوة كثيرين له لتأكد أنّ سليمان (ع) عظيم الشأن، وما يؤيد ذلك الثناء الإلهي على سليمان (ع) (نَبَاؤَ الْعَالَمِينَ مِنْ آيَاتِنَا). وبالفعل فلقد نشأ سليمان (ع) وترعرع في كنف أبيه: الملك - النبي داود (ع). وكما هو معلوم فإنّ مملكة أبيه الدينية تلك، سادها العدل والرخاء، وعمّ الأمن وهابها الأعداء بعد أن أذلّتهم بإذن الله. ويكبر سليمان (ع) وتكبر معه أحلامه في تلك الدولة الإلهية... أحلام العزّ وإقامة حكم الله في الأرض، خاصة مع ما رآه آنذاك من نعمة إلهية مغدقة، وبركات الرسالة وآثار العدل والإحسان. تفتّحت عيناه، وتنبه بسمعه وذهنه لبكاء أبيه وسجوده وكثرة تسبيحه وإنابته إلى الله سبحانه. ينظر قومه فيرى عزّهم وفرحهم بالنصر والرخاء. يحدّق في الطبيعة فيجدها قد تزيّنت وتعيّنت لتتفاعل مع ذلك الجو العابق بنفح الإيمان وبركة ذكر الله وإعلاء كلمته. وبذلك لم يعد غريباً أن ينشأ الولد وهو ابن أبيه: فلقد شابّه في العبادة والخلاق، وتساوى معه بالنبوة والعلم والمعجزات، وآتاه الله الحكمة.. أضف إلى أنّه أخذ عنه خبرة الحرب، وتحمل

معه عبء همّهم ومسؤوليتها. ولكم كان يهتم بمجالس القضاء وشؤونه مع أبيه، حتى ذكر القرآن الكريم اشتراكهما في ذلك وإن اختلفا في الحكم بإرادة الله. (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخِذُكُمَا فِي الْحَرِّ فِي الْوَادِعَاتِ وَإِذْ يَخِذُكُمَا فِي الْغَمِّ إِذْ وَقَفَ عَلَيْهِمُ الرُّجُومُ وَإِذْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ لِئَلَّا يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ أَجْرًا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (النمل/ 15).

وهذا هو سليمان الحكيم (ع): رفيق درب والده، وحامل صفاته ووارثه. قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (النمل/ 15). ويكفي من ذكر الصفات المشتركة بين داود وسليمان (ع) أن قال سبحانه عنهما في الآية المذكورة إنّه آتاهما العلم، وفضلهما معاً على كثيرين، أضف إلى ذلك قوله سبحانه عن داود: (إِنَّا جَعَلْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ أَوْلِيَاءَ نَحْنُ وَاللَّهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّا وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) (النمل/ 17)، وكذلك عن سليمان: (نِعَّمْنَا بِدَاوُدَ إِذْ أَعَدُّوا عَلَيْهِ عَدُوًّا بَالِغًا فِي ضَعْفِهِ وَإِنَّا لَنَجِيهِ مِمَّا يُكِيدُ لَهُ الْفِئْتَانِ مِن دُونِ الْعِلْمِ فَجَقَدْنَا لَدُنْهُ عُثْمَانَ وَاتَّخَذُوا الْعِلْمَ دُجَانًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وَإِنَّا بِمَا عَمِلُوا لَخَبِيرُونَ) (النمل/ 16).

لعل المتأمل في الآية يكتشف أن سليمان ورث داود (ع) وأزّنه توجّه إلى الناس مباشرةً للمسؤولية الجديدة. أما أمر الوراثة فإنّه يشمل المال والملك وإن كان يشترك معه إخوته إن وجدوا بمال أبيه الخاص. فيكون سليمان (ع) قد ورث مملكة عظيمة الشأن، قوية مزدهرة. وطبيعي ألا يُقصد بالإرث هنا العلم والحكمة والنبوة، وذلك لأن سليمان (ع) نبي "والنبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنّه إنما يصح في العلم الفكري الاكتسابي، والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم وهبي ليس مما يُكتسب بالفكر، فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي" [1]. وهكذا أضحى سليمان (ع) الخليفة في الأرض بعد أبيه، ولذلك توجّه إلى الناس مخاطباً من موقع المسؤولية، فيذكر الناس بما آتاه الله وأباه من قبل على قادة (وَأَمَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فَجَدَدْنَاهُمْ لَئِن لَّمْ يَظْهَرِ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَكُفِّرَنَّ بَعْدَهُمُ بِآيَاتِنَا وَنَجْعَلِ لَهُمْ قُلُوبًا غَافِلِينَ) (النمل/ 11)، وليبين لهم مقدّرات الدولة الموجودة تحت تصرفه، وربما أوضح أموراً وبرنامجاً لعمله لم يذكره القرآن الكريم لأنّه ليس كتاب تاريخ. وما يؤكد ذلك الآية: (وَجَعَلْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخِذُكُمَا فِي الْوَادِعَاتِ وَإِذْ يَخِذُكُمَا فِي الْغَمِّ إِذْ وَقَفَ عَلَيْهِمُ الرُّجُومُ وَإِذْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهُمُ لِئَلَّا يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ أَجْرًا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (النمل/ 17-18)، وكأنّه قد طوي كلام عن كيفية بدئه بالحكم وخطته، واكتفي بذكر تحرّكه مع جنوده في سبيل الله.

جنود سليمان: وبالفعل فإنّ من الواضح أنّ القادة - عادة لا يتحركون لغزو أو ما شابه إلا بعد توفير كل الإمكانيات اللازمة، وبعد استتباب الأمن، وانتشار الطمأنينة داخل المملكة والدولة. كما أنّ الجنود الذين يكوّنون الجيش القوي القادر لهم صفاتهم وأوضاعهم

الخاصة. فكيف كان جنود سليمان (ع)؟ لقد سُخِّرَ لسليمان (ع) جنود آخرون إضافة إلى البشر من جنود أبيه. فقد كان من نعمه أن عليه - وعلى بني إسرائيل - أن جعل الله لسليمان (ع) معجزة مختلفة عن غيره من الأنبياء وهي تسخير بعض الجن والطيور والحشرات والرياح. وبالطبع فإن لهذا التسخير دلالة مميزة... إذا انَّ سليمان (ع) أراد إعلاء كلمة الله في الأرض ونشر العدل والإحسان. وذلك يحتاج أحياناً إلى القوة والعدد والعدَّة لمواجهة المعارضين والمشركين الذين يريدون القضاء على الإيمان وأهله. وإذا توفَّر للقائد الرسالي ما يُعينه على إقامة حكم الله في الأرض فلا مفرَّ له من التحرك. وسليمان (ع) توفَّر له جيش قوي يقاتل به أعداء الله، ولكنه كان يطمح لأن ينطلق بعيداً في الأرجاء لإيصال صوت الحق. وبما أنَّهُ علَّم منطق الطيور وقد سخرت له فلماذا لا يستخدمها جنوداً أشبه بأجهزة الاستطلاع. فالطيور يمكنها الوصول إلى حيث لا يصل البشر، فهي تستطيع التحليق عالياً وكلما علت وارتفعت وبعُدت، كبرت المساحة التي يمكنها الاطلاع عليها، وهذا لم يكن ممكناً آنذاك للبشر، إذ كانوا يستخدمون الخيول والدواب للتنقل وذكر الهدهد مثلاً في القرآن للتأكيد على هذا الدور التسخيري والإخباري، خاصة وانَّ للهدهد نظراً ثاقباً فيما يقال. ونؤكد أنَّ الهدهد ليس وحيداً بين أنواع الطيور المسخرة لسليمان (ع) قال تعالى: (وَتَفَقَّهُدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ هُدًى مَّ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) (النمل/ 20). فقد تفقد سليمان (ع) الطيور المسخرة كلها ثم افتقد الهدهد.. وجليد بالذكر أنَّ الروايات كالأيات - تؤكد خضوع أنواع الجنود المختلفة لسليمان (ع). فبالإضافة إلى الإنس والطيور، كان الجن أيضاً من جنوده. والجنُّ نوع من المخلوقات الإلهية المكلفه كالإنس بالتكاليف الشرعية، ولكن لهم وضعهم وحياتهم الخاصة، ولا نعلم عنهم شيئاً إلا ما ذكره القرآن الكريم وبعض الروايات. وبالفعل فلقد كان الجن بأنواعهم مسخرين لسليمان (ع) يأمرهم فيطيعون ومن يخالف فله عقابه: قال تعالى: (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِدْيَةً بِالْأَذْنِ رَبِّهِ. وَمَن يَزْعُ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نُنْذِرُكَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ... (سبأ/ 12-13). (والشَّيَاطِينَ كُلِّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَمْفَادِ) (ص/ 37-38)، أضف إلى الجن والإنس والطيور والوحوش والحيوانات الأخرى كالخيول، وله معها قصة أخرى.. حيث كان يستعرضها يوماً قُبيل وقت اعتاد فيه أن يتفرغ لذكر الله، واستعراضها نفسه هو الله والاستعداد للجهاد في سبيله، فأخبره ذلك عن ذكر ربه فاعتبره أمراً غير طبيعي قال سبحانه: (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنَّ نَسِيَّ أَحَدَيْتُ حُبَّ الْخَيْلِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ - فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ

فَتَدْنُو سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْدَا عَلَي كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا ثُمَّ أَرْبَابًا * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْزِعْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنْ زِلْتِ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيَّثُ أَصَابَ (ص/ 31-36). فقد سمى سليمان (ع) استعراضه للخيل بالخير، ومع أنَّهُ خير لكنه أخره عن ذكر ربِّه - لا عن الصلاة حتى فات وقتها كما ادعى بعضهم - ولذلك تاب واستغفر لأنَّهُ اهتم بأمر آخر غير ذكر الله. . للهِ درَّ الأنبياء، حتى الأمر المستحب يستغفرون الله من تركه أو إغفاله ويتوبون من ذلك. ومن الملاحظ هنا أن الله سبحانه منَّ بنعمة أخرى على سليمان (ع)، وهو يعلم أنَّهُ سيستخدمها في سيئه. فبعد أن تاب - مع أنَّهُ لم يذنب - عوَّضه بالريح بدلاً من الخيل كوسيلة للتنقل. وينبغي التوقف هنا عند مسألة مهمة تؤكد التطور النوعي في حركة الجهاد عند سليمان (ع). فمن جنود البشر إلى الطيور والوحوش والخيول، إلى الجن والعمارة والشياطين إلى تسخير الرياح. وفي تسخير الرياح وحركة الجن والطيور تقرب لفكرة حكم سليمان للأرض قاطبة أو سعيه لذلك على الأقل. وإن لم يكن هناك دليل أو أثر لذلك. ولكن سرعة الرياح تلفت الأنظار إلى حدٍّ تشبيهاً بحركة الطائرات اليوم. وفي هذا القاطع السريع بواسطة الريح للمسافات الشاسعة دليل على كثرة غزو سليمان (ع) لأعدائه، وعلى اهتمامه الدائم بإعلاء كلمة الله في الأرض. قال تعالى: (وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهُ شَهْرٌ وَرَوْادُهُ شَهْرٌ وَأَسْلَانًا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ...) (سبأ/ 12). ومرَّ قوله سبحانه: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيَّثُ أَصَابَ)، فإذا كانت الريح تستطيع نقله إلى حيث يشاء، وإذا كانت الجن تغوص له في البحار، وتستطيع أن تأتيه بعرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن يقوم من مقامه، فليس غريباً فيما نرى أن يسير سليمان في الأرض باحثاً عن جهاد في سبيل الله، وإليك هذه الرواية عن أبي عبد الله (ع) "لما قبض داود ولي سليمان وعُلِّمَ منطق الطير وسخَّر له الجن والإنس، وكان لا يسمع بملك في ناحية الأرض إلا أتاه حتى يذله ويدخله في دينه، وسخَّر له الريح فكان إذا خرج إلى مجلسه عكف عليه الطير وقام الجن والإنس، وكان إذا أراد أن يغزو أمر بمعسكره، فضرب له بساط من الخشب وجعل عليه الدواب والناس وآلة الحرب كلها حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت الخشب، فحملته حتى تنتهي به إلى حيث يريد، وكان غدوها شهراً ورواحها شهراً" [2]. هذا هو سليمان، النبي الملك الحكيم، المجاهد في سبيل الله؛ وكأبيه كان يخصص وقتاً يجلس فيه ليستمع إلى شكاوى الناس وربما غيرهم من المخلوقات - ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه.. وعلى عظمتها وسلطتها على كثير من المخلوقات كان همه الوحيد أن يُعبد الله في الأرض:

يعبده هو، ويعبده سكان مملكته، ويعبده أهل الأرض جميعاً لو استطاع ولذلك سخر كل طاقاته وكل ما هو مسخر له لبناء معبد [] وهو ما عرف بهيكل سليمان (ع) وما أدراك ما هيكل سليمان؟! وخير الختام هذه الرواية عن صفة سليمان الحكيم العابد الزاهد رغم غناه، الضعيف أمام ربه رغم قوته أمام أعدائه: "وكان سليمان إذا أصبح تصفّح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين ويقعد معهم ويقول: مسكين مع المساكين، وكان مع ما فيه من الملك يلبس الشعر، وإذا جنّهُ الليل شدّ يديه إلى عنقه، فلا يزال قائماً حتى يصبح باكياً، وكان قوته من سفائف الخوص يعملها بيده..." [3].

الهوامش:

[1]- تفسير الميزان/ العلامة الطبطبائي (ره)، ج19، ص350. [2]- النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، الجزائري، ط الأعلمي 1978، ص407.

[3]- المصدر نفسه/ ص412.

المصدر: مجلة نور الإسلام/ العددان 21 و22 لسنة 1991م